عقيدة المسلم

تأليف الأستاذ الداعية محمد الغزالي

للأستاذ محمد فياض

من القواعد الاجتماعية التي نرى مع معتنقيها وجوب الأخذ بها : أن الشيء لا يوجد ، أو بعبارة أدق وأصدق في الحكم ، لن يكون له كيان إلا إذا كان المجتمع في حاجة إليه ، وبمقدار ما تكون عليه حاجة المجتمع لشيء ما ، بمقدار ما يكون وجوده بل كيانه متحققاً في عالم الواقع ، وكلنا يعلم أنه قد يوجد عبقري في بيئة ما ، ولكن تلك البيئة في حالة لا تسمح له بوجود أو كيان ، أو في حالة لا تهيئ له الظروف التي ينبثق من ورائها نبوغه ؛ ومن يدري لعلها لو قدر لنابليون ، أن يعيش في غير مصره أو في غير بيئته ؛ بل لم تكن بيئته على الوضع الذي كانت عليه إبان وجوده ؛ لما قدر له وجود أو كيان .. لأن استجابة مجتمعه إليه ، كان متوازناً مع حاجته إلى قدرات « نابليون » وإمكانياته الخاصة

وعندنا الآن في الشرق ، حين نتتبع الآثار العديدة في ميادين الحياة العامة ، على ما بها من تشابك واختلاط وتغلغل ؛ وهنا في مصر على وجه الخصوص ، حين نتتبع علائم الحياة في مجتمعنا المريض ؛ نجد أن كل مظهر نشهده ، وكل تقدم نحصل عليه .. إنما حدث ويحدث وفقاً لمقدار الحاجة الشعبية إليه ، ولمقدار شعورنا بتلك الحاجة ، ونعتقد أن ما يمنعنا عن التفصيل في تتبع الآثار الرئيسية التي تكشف عن حاجاتنا الاجتماعية والسياسية والفكرية .. في الشرق وفي مصر ؛ هو أننا في غير موطن الحديث ، خاصة والأحداث الشرقية والمصرية على السواء لم تستكمل حلقاتها النهائية بعد ؛ وشيء آخر ، لعل القارئ يدريه ، وأمله أن يتصل بشؤون السياسة الحاضرة أو نظم الحكم الموجودة .. من قريب أو بعيد !!

ولكننا مع ذلك ، سنتحدث في ميدان من تلك الميادين ، وعن كتاب من تلك الكتب التي خرجت إليه باعتباره أكمل كتاب وجد في حقله الخاص من ذلك الميدان ، وعن مؤلفه باعتباره أول رائد أصاب في ذلك الحقل جد الكمال

فما سقنا تلك المقدمة المجملة إلا من أجل شيء أردنا توضيحه وأردنا الخلوص إليه ، بعد إقامة الأساس الذي تستند إليه فكرتنا عن ذلك الكتاب وعن مؤلفه العالم الأديب

ونستطيع القول أنه منذ ربع قرن تقريباً ، وقد بدأت حاجة الشعوب الإسلامية إلى النهضة من جديد في الاشتداد ؛ نعني أن هذه الشعوب قد بدأت في مرحلة الإحساس بالظمأ والجوع إلى الاستقرار العام والتنظيم الشامل .. على الأساس الإسلامي ؛ ونعني أيضاً أن مشاعر الفكرة الإسلامية في نفوس هذه الشعوب قد دخلت في دور آخر دعامتاه : التكتل من جهة ، والتكوين من جهة أخرى ، ولقد كان ذلك الدور الحديث نتيجة طبيعية لأدوار الانحلال التي منيت بها القرون الإسلامية الأخيرة تحت وطأة الحكم الفردي ، بما جره من ألوان الخلافة والإمارة والإقطاع ؛ فذلك الانحلال الذي أصاب الشعوب الإسلامية ، هو نفسه الذي أشاع اليأس القاتل فيها ، وشوه معالم العقيدة والسلوك في القلوب والأذهان .. وهو نفسه أيضاً الذي أحدث الأمل كرد فعل طبيعي مباشر ، لما شاع من يأس وما استشرى من قنوط . وعلك أن نؤكد بأن ذلك الأمل قد بزغ أول ما بزغ وأشرق أول ما أشرق .. في أرض الحجاز بدعوة « محمد بن عبد الوهاب » السلفية .. ثم ما أعقبه من أصداء لتلك الدعوة ، في آسيا .. على يد الإمام الشوكاني ، والسيد أحمد ، وجمال الدين الأفغاني ، وفي أفريقيا .. على يد السنوسي ، ومحمد عبده ، وجمال الدين الأفغاني

ويجب أن نقرر : أن الحكم الفردي الذي كان السبب الأول والمباشر ، لانحلال الفكرة الإسلامية وتدهور شعوبها ، هو الذي قضى على ازدهار الدعوة الوهابية وانتشارها ، وشوه حقيقتها في نفوس معتنقيها ومؤيديها إن لم يكن قد طمسها ؛ وأن الطابع الفكري المحض ، الذي اتسم به الدعاة من بعد ابن عبد الوهاب ، هو الذي باعد بين عامة تلك الشعوب ، وبين

هذه الدعوات وأرائها ، فاتجه هؤلاء الدعاة إلى الحكومات دون الشعوب ، وإلى الخاصة دون العامة .. وساعد على ذلك كله أن مرحلة الظمأ والجوع أو اليقظة الشعبية ، لم تجاوز بعد الفجر الأول للأمل ؛ وأن الروح التكوينية التربوية ، كانت شديدة البعد عن هذه الدعوات ، وبخاصة فيما أعقب دعوة ابن عبد الوهاب من دعوات . وعلى أية حال . فقد مهدت دعوة ابن عبد الوهاب وما حدث بعدها من أصداء ، لحدوث الفجر الصادق للفكرة الاسلامية ؛ لتبدأ مرحلة الظمأ والجوع في الاشتداد ؛ ولتدخل الجموع الشعبية في طور « التكتل » الذى تمخض حتى الآن عن « أندونيسيا والباكستان » ، وفى طور « التكوين » أو طور الشروق — كما يحلو لى أن أسميه — وقد قدر لذلك الطور أن يقبل فى يسر من الرأى الشعبى العام ، بغض النظر عما اعترضه من صعاب .. نتيجة للجهل الشعبى الذى يكاخه ذلك الطور ، ونتيجة للاستبداد الفردى الذى ما تزال بقاياه

ولقد بدأ هذا الطور منذ ربع قرن ، كما أسلفنا الاشارة ، نتيجة للحاجة الشعبية ، والجو المد الملائم ، الذى سبقته الارهاصات والنذر ، فقدر لداعية الاسلام الشهيد «حسن البنا» أن يكون أول من يرتاد ذلك الطور ، فتتكون على يديه هيئة إسلامية عالية ، كل أهدافها تنحصر فى التكوين التربوى الاجتماعى ، على النهج الاسلامى الفردى للعقيدة والسلوك ، قبل الدخول فى دور « التكتل العام » الوحد ، وأرى من التباشير ما ينبئ بالتقاء طورى « التكتل والتكوين » فى ذلك الدور المنتظر .. فى المستقبل القريب

ومن طبيعة الدعوات الناجحة أن تنمو وتتسع ، وتتعدد جوانبها ، حتى تشمل سائر مرافق الحياة . سواء منها الاجتماعى والسياسى والفكرى ... وقد كانت دعوة « الاخوان المسلمون » دعوة اجتماعية ، تمثل الحاجة الاجتماعية للشعوب الاسلامية ، وإلا لما قدر لها ذلك الصمود وهذا الانتشار . وكان لا بد لتلك الدعوة من الاتساع والامتداد ، لتشمل كل ما يتصل بحياة الانسان ؛ وليس معنى ذلك استغراق الدعوة الاجتماعية ، لكل من الميدان الفكرى والسياسى ، على تفرد فى مناهما الخاص ، بل إن أى ميدان تتناوله منهما لا بد وأن يكون إلى جوار معناه الخاص وصفته المميزة ، صفة أخرى . هى الصفة الاجتماعية

فالدعوة الاجتماعية إذن تزاوج بين طبيعتها وطبيعة الميدان الذى تعمل فيه . والحاجة الشعبية إذن . . كما احتاجت إلى الهيئات الاجتماعية فى الميدان الشعبى الاجتماعى ، فهى أيضا تحتاج إلى الأفراد الأفذاذ ، فى الميدان الفكرى ، وفى الميدان السياسى .. وهى كلها دون شك حاجات عامة تحتاجها الفكرة الاسلامية وشعوبها . وفرق كبير بين الحاجات العامة التى تحتاجها الفكرة والشعوب ، وبين الحاجة الخاصة التى تحتاجها الهيئات الاجتماعية لتسد الحاجة الشعبية فى الميدان الاجتماعى

والجانب الذى سنعرض له ، هو الجانب الفكرى من الميدان الاجتماعى ، وهو بلا شك ، يشمل حقلين اجتماعيين فى الفكرة الاسلامية ، هما : حقل « العقيدة » وحقل « النظام » (السلوك والتشريع) . وفى هذا الجانب بحقليه ، كتب الأستاذ محمد الغزالى كتبه ، كواحد من الدعاة فى الميدان الاجتماعى ؛ وزاوج فى مؤلفاته بين النظر إلى نظم الشرق الحالية ، ونظام الاسلام التى كانت أو التى يجب أن تكون ؛ بل زاوج بين ما يصطرع فى الأفق العالى من مبادئ ونظريات ، وبين مبادئ الفكرة الاسلامية ، بطريقة المقابلة أو التعريض .. يحدوه فى كل ذلك الطابع الاجتماعى الذى تنشده دعوته الشعبية ، والذى لا يهدف أصلا لغير الاصلاح الاجتماعى العام كمبدأ أساسى مقصود . والواقع الذى تتهمناه فى كتبه ، عن طبيعته ككاتب ، وطبيعة كتبه وطريقة عرضها ، يؤيد لنا ما ننسبه إليه ، من أنه يعمل فى الميدان الاجتماعى وفى الجانب الفكرى منه ، ومن أنه يسد حاجة خاصة تحتاجها دعوة اجتماعية لتسد حاجة عامة من الحاجات الشعبية المعاصرة

فالأستاذ محمد الغزالى ؛ يفكر برأس عالم ، عايحويه المعنى العلمى من لوازم الدقة المنطقية ؛ وينفعل بخواطر الأديب فى وضع تأمل محدود ؛ ويكتب بعد ذلك برأس هذا العالم ، وقلم ذلك الأديب . ولكنه ليس بالفرد الذى يجول فى محيط تفكيرى خالص ، فهو إذا عكس لا ينضغم ، وإذا أحاط لا ينسق ، وإذا تغلغل لا يتوغل . ومع ذلك ، فهو صفحة حساسة صادقة التصوير الجزئى للفكرة والمجتمع ؛ فعدسة منظاره ، ليست بالجمعة المكبرة ، ولا بالدقة الموزعة ؛ فهو إذن .. باحث محدود المجال ، لا يكتب للزمن كله ، والمكان

كله ، والفكرة نفسها ، بقدر ما يكتب لجيله وعصره ومن يعيش فيه ، ولسوف تلمس في أسلوبه ، ليونة الانسياب ، وعقد الفاصل حين الانتقال من فكرة إلى أخرى ، وقد يفقد أسلوبه أحيانا سلاسته التعبيرية وبساطته العامة . ولكن الفكرة والمعان ، ستظل دائما موصلة لما نبا عنه . ولسوف تحس من أصداء عباراته على طولها ، لهجة الحديث ، ونغمة النقاش ، وهشيش العواطف ، وحدة الحماسة : كأنك معه في وقفة تفاهم ، تتراوح على وجهك أنفاسه . أما أداؤه فأداء نافسانى يجرى في ركابه مصطلحات عديدة ، تكونت أخيرا في الميدان الاجتماعي ، من جراء البحث المستند على علوم المنطق والاقتصاد ، والنفس والاجتماع ، وأما تصويره ، فكل ما علك قوله فيه ، أنه لن يخرج عن خصائصه ، ولا عن طريقته الناتجة من رأس العالم المدقق ، وخواطر الأديب المتأمل

وحين نقرأ كتب الغزالي ، ورائدنا البحث عن طبيعتها وطريقة عرضها ، فسنعرف أولا أنها عامرة باللمحات ، ناطقة بقدرة المؤلف على الاستنباط والاستنتاج ، ومدللة على طرافة البحث وجدة جوانبه ومناحيه ، ولكنها لا تدل كثيراً على أنه مفكر خالص وكاتب أصيل .. فوحدة الموضوع — وإن وجدت في غالب كتبه — مفقودة الاستغراق والعمق .. ووحدة العرض وجودته ضائعة تحت هذه العناوين العديدة التي تموج بها كتبه ، والتي لا تجرى على أساس من التتابع المنسق والتبويب المنظم .. ودقة التقسيم في الموضوع وفي الكتاب مفقودة العرض والطول ، ولا تشمل عادة كل الأقسام المبتغاة . وسنعرف أخيراً عن طريقة عرضه أنها طريقة هادئة متأملة .. مستطردة ، موسومة بطابع العاطفة والاخلاص وعدم التحيز ؛ وأنها طريقة ذهب منها منهج البحث الحديث . ونعلل ذلك بأن غالب كتبه قد كتب في مقالات ، لتكون « فصولا نابضة بالإيمان الحى ، والمنطق الذكى ، والعاطفة الحارة » ؛ وبأنه قد كتب بطريقة ذاتية محضة ، لا تعتمد إلا على دقتها الخاصة ، وثقافتها المختمرة ، وخواطرها الذاتية ؛ ولكن ذلك لا يطعن مطلقاً في سدها لحاجة الجانب الفكرى من الميدان الاجتماعي ، وما نظنه يقلل من أهميتها ، كما لا نزعم لحظة ، أنه سينقص قارئا من عشرات الألوف الذين يقتنون كتبه !!

وهذا المنحى الذى ألممنا بجوانبه ، هو ما يسيطر على ما أخرج الأستاذ الداعية محمد الغزالي في الحقل النظامى من كتب ، سواء فيها من الاسلام والأوضاع الاقتصادية ، والاسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين ، والاسلام والمناهج الاشتراكية ، وتأملات في الدين والحياة — ومن هنا نعلم — إلى ما سوف يخرج في أفق « السلوك » في كتابه المرقوب « خلق المسلم » ، ولكن هذا المنحى سوف يتغير كثير من جوانبه في كتابه « عقيدة المسلم » الذى أخرجه في حقل العقيدة ، ليسد به حاجة الفكرة والشعوب إليه ، غير أن هذا التغيير في بعض الأحكام ، لن يؤثر على مكانة الغزالي ، كحاجة خاصة في ميدانها الاجتماعي

ولست أدرى والله ، أكان يجب صدور هذا الكتاب منذ سنوات ؟ أم أنه قد جاء في وقته الملائم ؟ فقد انتهت العقيدة الاسلامية إلينا الآن ، بل ومنذ أجيال عديدة ، موسومة بعلم « الكلام » ، مربوطة بعجلة المنطق « البيزنطى » مبتوتة الصلة بالفؤاد ، شديدة التآخى مع العقل . بقواه الذهنية الجافة ، ومقاييسه الآلية البحتة ، وموازينه النظرية الخالصة ، مما دفع بالعديد من طلاب العقيدة إلى الهرب من جفافها ، ليقفوا بجوار السامة اليائسين ، في رحاب التصوف وشطحاته ، باحثين عن الجذوة التي تحيى في قلوبهم جذور الإيمان ، وتنعش في نفوسهم عاطفة الحب الالهى . وكنا بين ذلك ، في فقر يجدب من روح الإيمان العقيدى ؛ لابتعاد العاطفة الوجدانية عنه ، ولصوق الجفاف الذهني به . وكانت حاجتنا الشعبية تحتاج إلى غربلته من الحصى ، وتصفيته من الرواسب ، وتنقيته من الخلاف ، وتشذيبه من التطرف ؛ بل تحتاج إلى أن تكتب موضوعات العقيدة من جديد ، بروح الاسلام الخالد ، الموازنة بين العقل والوجدان ، والمنطق والعاطفة منذ أن عرفنا الفجر الأول للأمل ، ومنذ أن عشنا في فجره الصادق . ولقد خرجت إلى هذا الحقل العقيدى رسائل عدة ؛ ولكنها لم تكن لتحمل روح الإيمان المناسب ، وطبيعة العقيدة الصافية ، وأصالة التأليف الكامنة ، واستغراق المباحث المتعددة ؛ أما هذا الكتاب ... فقد حل كل ذلك ، وغربل ، وصفى ، ورقق ، وشذب ، حتى أحسست وأنا أقرأه ..

أنني أعيش في مشهد الفجر الأول للوجـــود ، وأتصل بالله وبالكون وبالحياة ، اتصالا أليفا لا تنفصم عراه ، ولسوف أعود لقراءة ذلك الكتاب كلما دبت في أعصابي معركة ، أو تسرب إلى نفسي قلق ، وإلى روحي اضطراب

وأعتقد أنه من العبث التفكير في تركيز الكتاب أو فكرته ، ما دامت موضوعاته الشهيرة لا تتجاوز نطاق الإلهيات والنبوات والسمعيات ، وما دام المؤلف الداعية لا يسمح لأحد أن يجمع خيوط كتاب له في يديه ليعرف هيكله العام . ولسنا نقصد أن المؤلف لم يتبع نهجا معينا في نسج كتابه ؛ فقد خرج لنا المؤلف في موضوعه المطروق بتقسيم جديد ، وتعديل كذلك ، وإن كانت موضوعات العقيدة ما تزال هي هي لا تزيد ، اللهم إلا في فصول يستدعيها العصر الحاضر « كعقيدة الألوهية عند الفلاسفة والعلماء » و « بين النبوة والعبقرية » . والشيء المتبقى إذن هو في معرفة المنارات الرئيسية ، التي وضعها المؤلف نصب عينيه ، حين طبخه لذلك الكتاب ، ومن مقدمة الكتاب ، نقتطف بضع نقاط ترشدنا إلى منارانه العامة : « هذه بحوث في العقيدة دفعتني إلى كتابته قلة الرسائل التي تعنى بهذا اللون من علوم الدين ، وتعرضه في أسلوب يتفق مع حاجة المسلمين المعاصرين »

« وقد رأيت أن أسوق الأصول العلمية لعقيدة المسلم في نسق يخالف ما ألف الناس قراءته عن هذه الأصول في مظانها من ثقافتنا الدينية ، لا لأني سآتي بجديد في هذا الميدان : بل نزولا على منطق التجارب ، وانتفاعا بما اكتنف جوانب التاريخ الاسلامي من أحداث ، وتوخيا للسير في هدى النصوص المجردة من الكتاب والسنة » . « وقد بذلت جهدي أن أتجنب أشواك الخلاف ، فإذا استطعت طيه في السياق الطرد طويته وتجاهلته ، وإذا اضطررت إلى خوضه عالجته على كره ، وذكرت ما استبان لي أنه صواب . وقد أستجهل الطرف المقابل — ولا أكفره — لأن الجهل الفاضح كما ظهر لي ، أساس كثير من المشاكل العلمية المبهمة . وربما لمحت في أخلاق المجادلين عوجاً ، وفي أسلوبهم عنفاً ، فأوثر مغفرة هذا كله ، على مقابلة السيئة بمثلها ؛ لأننا أمة فقيرة جدا إلى التجمع والائتلاف ، فلندفع ثمن هذا من أعصابنا .. والمرجع إلى الله »

ومع أن الكتاب قد خرج ليسد حاجة المسلمين المعاصرين في حقل العقيدة ، ويعالج مشاكل العصر ، فإن هذا الكتاب سيقبل الزمن كله والمكان كله ؛ لأن هذه الحاجة وتلك المشاكل في حقل العقيدة ، هي دائما حاجة كل الشعوب ، ومشاكل كل العصور ؛ يضاف إلى هذه العلة : أن النسق الذي أراد به المؤلف محو آثار الماضي السوداء عن جبين الحاضر في هذا الحقل ، قد دفعه إلى الحذر والأناة .. في تعبيره وتصويره وأدائه ؛ وأن طبيعة الموضوع المقســـمة المطروقة ، ووحدانه ... العديدة ، قد جعلت طريقة العرض لديه في هذا الكتاب ، حسنة التكوين مقبولة . وهذان الأمران الأخيران ، لم يعرفهما كتاب له من قبل ، وهكذا نجح في ذلك الكتاب الواقع في ١٨٠ صفحة من القطع المتوسط ، وسد به حاجة خاصة لدعوة اجتماعية في الميادين الشعبية

وكل ما نرجوه ، هو أن نشهد ذلك الكتاب مطبوعا باللايين ، شائعاً بين الشعوب كلها ؛ . . عسى أن تعرف عقيدة الاسلام في وضعها الطبيعي الفطري ؛ . . وعسى أن تبصر حقائق التوحيد الإلهي .. والقضاء والقدر والجبر والاختيار . . والايمان والعمل .. والخطيئة والتاب . . والخلود ؛ فتنجاب روائح الفساد السياسي والاجتماعي والنفسي .. ، ولعل الخطوة إلى ذلك : أن تدرســـه في المرحلة الثانية من التعليم الأزهري ، فتخرج طائفة تبصر جيلها بعقيدتها ، صحيحة خالية من الشوائب ، ومع هذا .. فسنظل ننتظر البحث المكتمل الشامل المبتكر .. في حل العقيدة من الميدان الفكري ، مبحثا لا يتقيد بموضوعات الماضين ، التي تمت مع الجدل والزمن ، بل يستغرق مسائل العقيدة في الكتاب والسنة ، وأراه لا يكون في غير فكرة الاسلام الكلية عن « الله : والكون والحياة والانسان » وحينئذ نرجو أن نتعرف إلى اب الاسلام كاملا غير منقوص إن شاء الله

محمد فياض